٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسئلة الكتاب صـ ٢٠

الرحلة الشرقية للاب فيليب الكرملي (١٦٢٩م)

ترجمة وتعليق
الاب د. بطرس حداد
بغداد ـ الجمهورية العراقية

مقدمة المترجم:

هذه واحدة من اقدم الرحلات التي نجد فيها بعض الاخبار والمعلومات عن قطرنا العراقي في النصف الاول من القرن السابع عشر، اقدمنا على ترجمتها لفائدة المؤرخ العراقي المعاصر.

وصاحب الرحلة راهب كرملي، ولد قرب افينيون (فرنسة) سنة ١٦٠٣، وكان اسمه «اسبري جوليان» Esprit Julien ودخل دير الكرمليين في ليون سنة ١٦٢١ وهناك ابدل اسمه على عادة الرهبان فاتخذ اسم «فيليب» Philippe de la Trinite وقد نسبه رؤساؤه للعمل في ديرهم في بلاد فارس، فغادر بلاده ورحل الى الشرق، وقدم الى العراق سنة ١٦٢٩ عن طريق حلب ثم عانه فبغداد، ومنها الى بلاد فارس. وفي السنة التالية عاد الى العراق فنزل في البصرة ثم أبحر الى الهند، وبعد عشر سنوات رجع الى اوربا. وهناك تسنم مختلف المسؤوليات الكنسية، حتى اصبح رئيس الرهبنة الكرملية العام (١٦٦٥) وتوفي في نابولي في ٢٥ شباط ١٦٧١."

له مؤلفات عديدة تاريخية دينية، ومابهمنا منها هو كتاب «الرحلة الشرقية» الذي نشره باللغة اللاتينية سنة ١٦٤٩ ونظراً الى اسلوبه الشيق، واهتمام الغرب بمعرفة مايدور في الشرق من احداث فقد تُرجمت الرحلة الى الفرنسية ونشرت سنة ١٦٥٢ (وطبعت ثانية ١٦٥٩) كما ترجمت الى الايطالية ١٦٦٦ (وطبعت من ثم في البندقية ثلاث مرات) والى الالمانية فطبعت في فرنكفورت ثلاث مرات (١٦٧١ ـ ١٦٧٣ ـ ١٦٩٦).

وقد ترجمنا الرحلة عن الطبعة الاولى بالنص اللاتيني التي نشرت في ليون سنة ١٦٤٩ في حياة المؤلف، واكتفينا بترجمة مايخص العراق من الرحلة.

كلمة في الرحلة:

نرى ان المؤلف وضع كتابه لالغاية علمية، بل كتقرير مبسط لرحلته، واضاف الى ذلك بعض الاخبار والمعلومات السطحية لاشباع فضول اصدقائه الغربيين بعد عودته الى بلاده، فهو يعد القراء في عنوان الكتاب انه يتكلم: «عن حوادث الرحلة واقاليم الشرق وعن الجبال والانهار والامراء والسكان... وعن الحيوانات والاشجار والنباتات والاثمار...».

وهذه طريقة لجذب اكبر عدد من القراء. لكننا عندما نتصفح الكتاب نراه مختصراً جداً، وان افكاره غير متسلسلة، ونلاحظ جهل المؤلف بعادات الشرق فهو بعيد عن البحث العلمي ويكتفي بقوله «رأينا قرية.. او مدينة» ولايجهد نفسه بالسؤال عن اسم تلك القرية او المدينة، ولم يكلف نفسه عناء ضبط التواريخ رغم قربه الزمني من حدوثها فيكتفي بالقول: «قبل مدة... او قبل سنوات» وماشابه ذلك.

حصة العراق في الرحلة قليلة، بينما يتوسع المؤلف في الامور التي تخص بلاد فارس والهند. ورغم مرور السائح بالعراق في فترة حرجة من تاريخ قطرنا، اذ كانت بغداد ترزح تحت نير الاحتلال الفارسي، فانه اكتفى بالتنويه باخبار عامة.

WWW.ATTAWEEL.COM

الرحلة الشرقية
للاب فيليب الكرملي (١٦٢٩م)

السفر الى الشرق[1]

. . . وصلنا[2] الى حلب في ١٨ نيسان [١٦٢٩] وغادرناها في ٩ ايار.

يجدر القول ان البادية التي تفصل حلب عن بغداد هي صحراء قاحلة خطرة. ولذا لايجازف التجار بالسفر فيها منفردين بل يتجمعون في قافلة كبيرة. وقبل رحيلهم يجب عليهم ان ينالوا اذناً بالسفر من باشا حلب، بعد ان يقدموا له مالاً وهدايا. وعليهم ايضاً ان يرسلوا وفداً الى «ملك البادية» يطلبون منه السماح بالمرور عبر اراضيه، فيمنحهم كتاباً خطياً مشفوعاً بكلمة شرف للمحافظة على سلامة المسافرين وارواحهم، بشرط ان يدفع تجار القافلة ضرائب عن بضائعهم. . .

اتفقنا مع رجل ليُعِدّ لنا المؤن والمطايا ويقوم على خدمتنا من حلب الى فارس لقاء ستين سكودو[3] عن الشخص الواحد. . . فاعدّ لنا جملين تتدلى على طرفي الجمل محفّتان، واحدة لكل راهب اذ كنا اربعة. . .

تتخذ القافلة قائداً يسمى «كروان باشي» اي رئيس القافلة. فهو يدير امورها، ويحل المشاكل التي قد تحدث بين التجار، ويعاقب المذنبين، ويتخذ القرارات الحاسمة، ويرشد الى الطرق الامنية، ويقرر اوقات السير او التوقف.

. . . هناك طريقة عجيبة للمراسلة بين حلب وبغداد وذلك بواسطة الحمام الزاجل.

عانه.

وصلنا الى عانه وهي عاصمة البادية، وتقوم على ضفتي الفرات. هناك امضينا شهراً كاملاً رغماً عن ارادتنا. فبعد ان دفع التجار الضرائب عن بضائعهم، واستعدت القافلة لاستئناف الرحلة، جاءنا موفد جديد من الملك يطالب بالبضائع والامتعة الخاصة بالرجال الذين ماتوا في الطريق، لانه يرث كل من يموت في اثناء السفر، وكان عارفاً بالقتال الذي نشب بين بعض رجاله وجماعتنا ومات من جرائه بعض المسافرين. . . وبعد اخذ ورد استغرق اياماً تمت التسوية بمبلغ قدره ٢٠٠ سكودو حمله اثنان من القافلة الى الملك[4] فرضي بذلك واذن لنا بالرحيل. وجدنا في عانه قافلة مسافرة من بغداد الى حلب والتقينا برجلين اوربيين احدهما جراح فرنسي يدعى «دوماج» يلبس الزي العربي، وكان ملك العرب قد دعاه لمعالجته من مرض ألم به، وبعد ان انهى مهمته كان في طريق عودته الى حلب حيث يقيم، والثاني تاجر الماني اسمه برنارد. . .

عبرنا النهر الى ارض مابين النهرين، ومن هنا الى بغداد لاتزال امامنا مسيرة اثني عشر يوماً. وكنا نسير بمحاذاة الفرات، وفي طريقنا رأينا قرى عديدة مابين كبيرة وصغيرة قائمة على ضفة النهر. كما شاهدنا موقعاً يخرج القار من باطن الارض. وقد استعمل البابليون هذه المادة قديماً في بناء برجهم الذي رأيناه يوم وصولنا الى بغداد.[5]

بغداد:

في الايام الثلاثة السابقة لوصولنا الى بغداد، ابتعدنا عن الفرات واخذنا نقترب من دجلة، فنرى الاراضي الخضراء وغابات النخيل. وفي اليوم السادس من تموز [١٦٢٩] ظهرت لنا مدينة بغداد الشهيرة، فلم يتمالك بعض الرجال الارمن انفسهم فعبّروا عن فرحهم باطلاق العيارات النارية تحية لبغداد، وحمداً لله على السلامة.

لكن بغداد الشهيرة هي نصف خراب حالياً.[6]

نزلنا في دار الآباء الكبوشيين،[7] وبقينا عندهم الى ٢٢ تموز. وكان الحر شديداً لايطاق، رغم ان الآباء بذلوا جهداً مشكوراً لتخفيف ألمنا والترويح عنّا بمختلف الطرق.

اضطررنا للبقاء في بغداد هذه المدة الطويلة لان التجار ابدلوا الجمال بالبغال، كما انهم ارغموا على تبديل الريالات الاسبانية[8] بالعملة الفارسية، وفي هذه العملية يستفيد حاكم بغداد كثيراً.

السفر من بغداد:

تركنا بغداد في ٢٣ تموز عند الغروب ووجهتنا بلاد فارس. وفي تلك الليلة قطعنا خمسة وعشرين ميلاً. لان الارض سهلة منبسطة، والبغال اسرع من الجمال في السير. فوصلنا الى بلدة تقع على نهر ديالى، وعبرنا النهر على جسر من القوارب. وفي الليلة التالية قدمنا الى قرية كثيرة الجداول عامرة بالنخيل. وفي الليلة الثالثة توقفنا في قرية يمر بها جدول. وفي الليلة الرابعة قربنا من نهاية منطقة كلدية ونزلنا في قرية قائمة على نهر صغير ورأينا جسراً من الآجرّ شيده الشاه عباس[١٠٠] عندما استولى على بغداد، فاراد بذلك ربط ارض كلدية بارض فارس.

الفرس والعثمانيون:

مضت تسعة اشهر على وجودي في فارس، عندما وصلني ايعاز لمغادرتها. وفي تلك الفترة كان السلطان الاعظم قد اعدّ جيشاً عرمرماً قيل انه يبلغ ثلاثمئة الف محارب، وذلك لاسترجاع بغداد من قبضة الفرس. لكنه قبل ان يتوجه الجيش الى بغداد سار لاكتساح الفرس في عقر دارهم[١٠١] لان القتال في ارض كلدية صعب في فصل الصيف.

فتوغل الجيش في فارس حتى وصل الى همدان التي تبعد عن اصفهان مسيرة ستة ايام، وقبل ان قائد الجيش الفارسي زئيل خان تواطأ مع الاتراك، فنال جزاءه بالموت.

لم يستطع الفرس مقاومة الاتراك فهؤلاء اقوى منهم بكثير، لكن الفرس اكثر منهم مكراً في خطط الحرب. فكانوا يتقدمون نحو مواقع الاتراك ويخيمون، وماان يبلغهم خبر استعداد هؤلاء للهجوم حتى كانوا ينسحبون تاركين الارض قاعاً صفصفاً، ويضعون السم في موارد المياه. وعندما يصل المهاجمون الاتراك بعد جهد جهيد وافتقاد المؤن الضرورية للجنود والعلف للحيوانات فيعودون ادراجهم خاسرين.

فالقتال الطويل في ارض فارس اضعف الجيش التركي، بحيث انه عندما وصل الى بغداد وحاصرها من جميع جهاتها مدة اربعين يوماً ثم ضرب اسوارها، اضطر في آخر الامر الى الانسحاب لقلة المؤن وحالة العوز التي احس فيها، فعاد دون ان يحقق شيئاً.[١٠٢]

السفر الى البصرة:

عندما اقتربت جحافل الاتراك من اصفهان فاصبحت في خطر السقوط... اجتمع رهبان الدير للمشاورة ثم قرروا ان يتعد بعضنا عن المدينة، وكنت من بين الذين تقرر سفرهم حالاً الى البصرة. فغادرت اصفهان في ١٧ ايار، وفي ٢٥ منه كنت في شيراز وبقيت هناك اربعة ايام ثم انحدرت الى البحر، وفيه لاقينا صعوبات جمة فقد الفت الرياح بقاربنا بعيداً وكدنا ان نغرق، ونفذت مؤونتنا. وعندما اقتربنا من قرية على الشاطيء ونزلنا الى اليابسة لنستريح استقبلنا الاعراب بلطف عظيم وكرم بالغ واعطونا كل ماكنا نحتاج اليه...

واخيراً وصلنا الى البصرة في ١٥ تموز [١٦٣٠] فاستقبلنا الرهبان الكرمليون[١٠٣] بمحبة ونزلنا في ديرنا. ومكثت هناك خمسة عشر شهراً منكباً على دراسة اللغتين العربية والفارسية. ثم اوعز الي الرؤساء بالسفر الى الهند...

من عادة التجار البرتغاليين الاقلاع من البصرة في اواسط تشرين الاول بعد الانتهاء من قطف ثمار النخيل. لكنهم في هذه السنة ١٦٣١ قدموا موعد سفرهم بضعة ايام بسبب شاب نصراني كان اسيراً عند الفرس واتخذه امام قلي خان حاكم شيراز لخدمته. وقد اوفده في مهمة خاصة الى الحويزة القريبة من البصرة. واذ كانت الفرصة مواتية للتخلص من العبودية فقد هرب الى البصرة. وكان مطلعاً على مخططات سيده ضد البرتغاليين. فلما جاء الى البصرة نزل عندنا. وبلغ خبر هروبه الى سيده فارسل الى حاكم البصرة[١٠٤] يطلب منه اعادة الشاب الهارب. وكان الباشا على علاقة طيبة بالآباء[١٠٥] فدعاهم وطلب احضار الشاب، وفي

الطريق خطفه رجال الباشا . . .

وفي زيارة لاحقة رافقتهم تاجر برتغالي غني، وكعادة اهل البلاد فانه لم يحضر خالي اليدين بل قدم هدايا معتبرة للباشا، طابت نفسه لها، فلبّى طلبهم واطلق سراح الشاب واعاده اليهم.

لقد اطلعنا الشاب على نوايا خان شيراز ومخططاته، وقال انه كتب الى باشا البصرة طالباً منه تسليم الاسطول البرتغالي كشرط لعقد السلام معه. وكان الاسطول مؤلفاً من خمسة وعشرين سفينة. وكان الفرس بأمسّ الحاجة اليها لانهم لايمتلكون سوى بعض القوارب الصغيرة التي لاتصلح للقتال. لهذا السبب اسرع البرتغاليون فاخرجوا سفنهم من القنال الفرعي لنهر الفرات الذي يمر بالبصرة وتقدموا الى اواسط الشط ولبثوا هناك فترة تحت حراسة شديدة، الى ان انتهوا من تحميل مراكبهم بالتمور فأقلعوا في ٤ تشرين الاول في شط العرب وانحدروا الى البحر.

كلمة عن البادية العربية:

تقسم بلاد العرب الى ثلاثة اقسام: البادية، والارض السعيدة، والارض الصخرية. ولن اتكلم عن القسم الثالث لاني لم احل به بل رأيته من بعيد فقط.

هناك مدن وقرى صغيرة في بادية العرب. . . فبعد حلب بسبعة ايام نشاهد «طيبة» وهي حالياً قصبة صغيرة جداً، لكن الخرائب القريبة منها تشير الى انها كانت مدينة كبيرة فيما مضى. . . ثم «الرحبة» وتقع على بعد يومين عن طيبة، وتقوم على مرتفع وهي غير بعيدة عن الفرات. وبعد مسيرة ايام اخرى نمر بقرى ثم نصل الى «عانه» وهي اكبر مدن البادية، وكانت كبيرة وشهيرة قبل ان يخربها الفرس منذ سنوات. وتقوم على ضفتي الفرات ويبلغ طولها نحو ميل، وتحدها الجبال. وفي وسط الفرات جزيرة فيها قلعة. . . وتكاد تكون عانه حالياً نصف خراب وخالية من السكان، والذين فضّلوا البقاء فيها هم عرب ويهود. ومن بعد عانه حتى بغداد هناك بعض القرى على الفرات.

وفي البادية مدينة عجيبة غريبة في نوعها هي مدينة ملك العرب. منازلها ليست مشيدة بحجارة بل هي خيام سهلة النقل. قيل لي ان ملك العرب هذا عندما يتسنم الرئاسة يقسم بان لايعيش في المدن الثابتة التي تخضع له ولكن في هذه المدينة المتنقلة في أرجاء البادية، ولايعرف موقعها الا قلة من الناس خوفاً من الاتراك، لان الملك على خلاف مستمر معهم، ولذلك يغيّر مقامه دائماً فينقل مدينته حيث الامان لاتباعه والكلأ لحيواناته. وهذه المدينة منتظمة جداً، فسرادق الملك يقوم في الوسط ويتشعب منها اربعة طرق الى الجهات الاربع، ولكل خيمة موقعها المحدد في احد الطرق، فاذا انتقلت المدينة الى موقع جديد يعاد تشكيلها بنفس النظام فتحتل كل خيمة موقعها ذاته. ويبلغ عدد السكان في هذه المدينة المتنقلة بضعة الأف من جملتهم حرس الملك وهم نحو الفي رجل.

تتكون واردات الملك مما يؤديه له سكان القرى الخاضعة له، ومن الضرائب التي يستوفيها من قوافل التجار، فهو على اطلاع بكل مايجري في اراضيه بواسطة عيونه الذين يبثهم في طول البادية وعرضها، فما ان يبلغه خبر دخول قافلة الى اراضيه حتى يرسل رجاله لجمع الاتاوات. واذا كانت القافلة مهمة فيذهب بنفسه لجمع الاتاوات المقررة اضافة الى هدايا متنوعة يقدمها التجار له. اذ ان العادة الجارية في الشرق انه لايجوز لقاء الامراء والملوك بايادٍ فارغة. ويعمد ـ الملك ـ عادة الى المماطلة في جمع الضرائب اياماً عديدة. ليفسح المجال لرعاياه فيبيعوا ماعندهم من ثمار وخبز ولبن واشياء اخرى للمسافرين. واذا حدث ان توفي احد المسافرين في اراضيه فانه يستولي على امواله وبضائعه.

يهبط في هذه البادية «منٌ السماء» فيجمعه الاعراب ويحملونه الى البصرة، ويباع هناك بأسعار بخسة اذ يستعمل كدواء، ويشتريه البرتغاليون فيتاجرون به.

تنبت على ضفاف الفرات اشجار مثمرة كالكروم والتين. وهناك البطيخ وماشابه ذلك. وقيل لي ان النخيل كان يغطي النهر الى قبل عشرين سنة لكن الشتاء القارص الذي تكرر بضعة اعوام قتلها فلم يعد فيها وجود.

حيوانات البادية:

تعيش في البادية مختلف انواع الوحوش، فهناك الاسود والنمور والحمير الوحشية التي تركض بمجموعات، وقطعان الغزلان التي رأيت منها عند ضفة الفرات. كما رأيت في قفص حديد حيواناً يسميه العرب «دليل الاسد» وهو يشبه القط،[١١٦] ولذا يسميه البعض «القط السوري» وقد رأيت واحداً منه في مدينة فلورنسة، وكانوا يسمونه هناك بهذا الاسم، وهو حيوان وحشي تعلو اذنيه ذوائب من الشعر. اما تسميته «دليل الاسد» فترجع الى ان حاسة الشم عند الاسد ضعيفة بعكس ماهي عليه عند هذا الحيوان، لذلك يتعاونان على قنص الفريسة ويترك الاسد حصة لدليله... وهناك الذئاب والافاعي التي تتكاثر في هذه الارض افادنا.

تستغرق الرحلة من حلب الى بغداد شهراً كاملاً، والى البصرة شهرين، لان الجمال المحملة لاتقدر على قطع اكثر من خمس مراحل وفي الاكثر ست مراحل في اليوم الواحد.

بلاد العرب السعيدة:

يجب الا تسمى هذه المنطقة «سعيدة» ابداً، لان سكانها فقراء وهم في اشد حالات البؤس والتعاسة، والارض قاحلة، ومصادر العيش قليلة.

يُجمع في هذه المنطقة «مَنّ السماء»، واللبان؛ وفيها نخيل كثير، ومختلف انواع الفواكه. المناخ حار جداً.

في هذه المنطقة قرى كثيرة ومدن عديدة، اهمها البصرة. وهي مدينة واسعة، كثيرة الخيرات والبضائع التي ترِدها من الهند. تبعد نحو ميل عن النهر، ويتفرع منه قنال كبير يمر حول اسوار المدينة. وفيها من الفواكه: العنب والتين والتفاح والرمان. ويكثر النخيل فيها على مد البصر في جميع الجهات وذلك بسبب مناخها الحار.

معظم سكان البصرة عرب ويتكلمون العربية، وفيها اتراك خاصة من العسكريين. ويفدها الفرس باعداد كثيرة للتجارة، ويطلقون على الفارسي اسم «عجمي». لذلك نرى اللغتين التركية والفارسية منتشرتين في المدينة.

ولقد نمت هذه المدينة وتوسعت منذ سنوات قليلة على اثر سقوط بغداد وهرمز، لان اعداداً كبيرة من الناس من العامة والتجار قدموا اليها.

فيها من النصارى طوائف عدة: الارمن والنساطرة واليعاقبة. وهناك جماعة يطلق عليها اسم نصارى القديس يوحنا وهم ليسوا بنصارى، اذ يسمون انفسهم مندائيين، ويعرفهم الآخرون باسم الصابئة.

تتبع منطقة البصرة قرى صغيرة عديدة. والفواكه فيها كثيرة كما ذكرت آنفاً واهمها التمور، كما يوجد الرز فيها، اما القمح فيجلب من فارس.

ان الباشا الذي يحكم البصرة قد شق عصا الطاعة على السلطان قبل بعض الوقت. وهو على علاقة جيدة بنا، ويزور بيتنا مراراً، ويتصدق علينا بهبات كريمة. وله نية نقل مدينة البصرة الى ضفة الفرات، ولهذا شرع ببناء قلعتين جميلتين هناك، واسواراً وادواراً كثيرة، وحفر حولها خنادق عريضة وعميقة.

تطبق هذه الشعوب العدل على الطريقة الاسلامية، لابواسطة محامين بل امام القاضي الذي يطلقون عليه اسم «الافندي».

تأتي السفن البرتغالية الى البصرة حاملة البضائع الهندية ثم تعود محملة بالتمور والفواكه على انواعها والسجاد، وخاصة الجياد العربية الرائعة. والعادة المتبعة ان من يحمل عشرة جياد يعفى من دفع الضرائب عن بضائعه، فان نفق جواد في الطريق يعمد صاحبه الى قطع ذنبه لعرضه على الجباة فيتخلص من دفع الضرائب.

وصف مابين النهرين:

هي الارض الخصبة جداً الواقعة بين النهرين: الفرات ودجلة. وفيها قرى ومدن كثيرة مأهولة بالسكان، وهي سهلة

منبسطة قليلة الجبال. ولقلة السكان فيها فان معظمها غير مزروع اللهم قرب المدن والقرى.

من مدنها القديمة نينوى عاصمة الأشوريين. . . وتزال بعض اثارها قرب دجلة، وقد قامت مدينة تسمى الموصل. وبابل الواسعة العظيمة. . . وبغداد الواقعة على دجلة وفيها قسم ضمن بين النهرين لكنه هدم منذ بعض الوقت من قبل الفرس.

وصف كلدية:

ان كلدية او دولة الأشوريين هي اقدم مملكة في تاريخ العالم، ازدهرت منذ عهد نينوس اول ملوكها. اما اهم المدن في هذه المنطقة حالياً فهي بغداد وتعني البستان لكثرة البساتين العامرة فيها، وتسمى ايضاً بابل الجديدة لانها شيدت بمواد بابل القديمة. وكانت مدينة واسعة قائمة على حدود نهر دجلة قبل ان يدنسها ويخربها شاه الفرس قبل سنوات قليلة. اما الآن فان ضاحيتها المشيدة على جانب البادية قد دمرت واصبحت قاعاً صفصفاً. اما القسم الآخر منها لايزال قائماً وهو باتساع مدينة افيزون.

ان المساحات المزروعة بالنخيل داخل المدينة وخارجها تُضفي على بغداد جمالاً أخّاذاً. ولقد اعاد الفرس بناء سورها وابراجها من اجل تحصينها لامن اجل تجميلها. دُرُوبها ضيقة كسائر المدن الاسلامية. بيوتها مشيدة بالطين او بالطابوق.

احوال بغداد:

عندما مررت ببغداد كانت في قبضة الفرس الذين استولوا عليها لابقوتهم ولكن من جراء الخيانة، لان حاكمها الذي يقال له الباشا، حَلَّ عليه سخط السلطان، واذ خاف ان يأمر السلطان بقتله، قدم الارض للشاه عباس الفارسي، ثم انقلب عليه وغير خطته مستهزءاً بالشاه الذي جاء ليتسلم المدينة ويضمها الى دولته. فغضب الشاه جداً من هذا التحدي وحاصر المدينة مستخدماً الخبث والغدر وخيانة ابن الباشا نفسه حتى استولى عليها. وعندما سقطت القى القبض على الباشا، واذ كان قد خان الطرفين اي السلطان والشاه فانه لم يجد من يشفع له، فمات اشنع ميتة بعد عذاب طويل ومرير وغريب في نوعه؛ اذ نال في اول الامر رعاية خاصة ولمدة ثلاثين يوماً كانت وجباته اشبه ماتكون بالولائم، لكنهم حرموا عليه النوم فما ان يداعب النعاس اجفانه حتى يوقظوه بضربات حادة، وبهذه الطريقة المهولة لقي حتفه فنال جزاء خيانته.[١٧]

بقيت المدينة بحوزة الفرس سنوات قليلة. لكن مكانتها الكبيرة في نفوس الاتراك تجارياً ومعنوياً، لاتليق بكرامتهم ان تبقى تحت الاحتلال، لذا جهز السلطان حملتين او ثلاثاً لاسترجاعها، لكن العساكر هلكت دون ان تحقق نتيجة، واخيراً تحرك السلطان مراد نفسه على رأس جيش جرّار بعد اربعمئة الف رجل، وقد سمعت انه استعادها مؤخراً[١٨] وقيل لي انه لم يفتحها بالقوة والشجاعة، ولكن من جراء خيانة حاكمها. ومات في الحرب مئة وثلاثون الفاً من جانب الترك، ولقي ثمانية عشر الف فارسي حتفهم على يد الاتراك بعد سقوط المدينة.[١٩]

بابل:

على مسيرة يوم جنوب هذه المدينة توجد خرائب بابل القديمة في موقع بين دجلة والفرات، اذ لايبعد مجرى الواحد عن الآخر كثيراً في ذلك الموضع. كانت بابل القديمة واسعة جداً تكاد تحتل كل المساحة بين النهرين، ولاتزال آثار عظيمة تشاهد في اماكن عديدة الى الآن. كما توجد خرائب برج بابل على بعد ستة فراسخ فوق بغداد كما اخبرني بعض الأرمن الخبيرين بشؤون هذه البلاد والذين نستخدمهم كمرشدين. لقد ظهر لي البرج الذي اشاروا اليه عالياً رغم اننا القينا نظرة عليه من بعيد، ولو فكرنا ملياً فان توهم لايخلو من حقيقة محتملة لانه غير بعيد عن ينبوع القار، وقد جاء في الكتاب المقدس ان الذين شيدوه استعملوا القار عوضاً عن الملاط في بنائه.[٢٠] يقال ان ارتفاعه يبلغ ميلاً واحداً، لكن النصارى المحليين يؤكدون ان ارتفاعه يبلغ ٣٩٢ ذراعاً، ونظراً لقيامه في موقع قفر فانه يبان اعلى مما هو في الواقع.

سكان بلاد بابل هم كلدانيون يتكلمون اللغة العربية، ومعظمهم مسلمون، ولكن هناك عدداً من المسيحيين من ارمن ويعاقبة ونساطرة، والنساطرة هم اكثر عدداً واهم مكانة من الآخرين. . . وقد اظهروا لطفاً معنا واستعداداً للتقرب منّا،

ويسكنون في قرى بلاد بابل، وهم بطريركهم وهو راهب من اتباع القديس باسيليوس،[٣٠٠] ويسكن في دير شهير في بين النهرين،[٣٠١] وكان قد دعا قبل سنوات وطلب بالحاح احد رهبانا المدعو الاب باسيل للقديس البرتغالي الاصل[٣٠٢] وهو راهب فاضل رفيع الخصال عالم باللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية والكلدانية فلبى دعوته وتبادلا وجهات النظر في امور الديانة. قسسهم متزوجون كسائر الطوائف الشرقية اما اساقفتهم فلا. يستعملون في مراسيمهم الدينية اللغة الكلدانية.

في السنين الاخيرة عثروا قرب بغداد (بابل) على مقالع للرخام فاخذوا يستخدمونه في تجميل اماكن العبادة.

شذرات متفرقة:

[ص ٩٨]. . . وكنت قد توهمت اعلاه كيف استولى الشاه على بغداد ومنطقة كلدية. . . وكان مصمماً على ارسال حملات اخرى للاستيلاء على مناطق اخرى كالبصرة مثلاً، ولكن حدث ان وافاه الاجل المحتوم في اثناء حصارها.

★ ★ ★

عندما كنت في البصرة وصل خبر تداعي جامع مكة الشهير وسقوطه فعم الحزن ارجاء المدينة ولم يتمالك الناس انفسهم عن البكاء.

★ ★ ★

[ص ٣٢١] بينما كنا في البادية العربية في طريقنا من حلب الى بغداد، شرع العرب بمراقبة القمر ولاحظوا خسوفه، فجمعوا الاواني النحاسية واخذوا يقرعون عليها بقوة محدثين ضجيجاً هائلاً،[٣٠٣] اذ انهم يعتقدون ان قتالاً ضارياً قد نشب بين القمر والشمس ويريدون بهذا الضجيج ايقاف القتال.

★ ★ ★

يقدم عرب البصرة ضيافة لامثيل لها تحو الغرباء بكرم ولطف عاليين. وهذا ماحدث لي ولرفاقي عندما قدمنا اليها بحراً من فارس ونفذت مؤونتنا وكدنا نموت جوعاً وعطشاً. وماان وصلنا الى احدى قراهم حتى قدموا لنا خبزاً ولبناً وتمراً وكل ماكان عندهم في ذلك الموسم. وبعد ان اكلنا وشبعنا طلبنا منهم المزيد على سبيل الشراء فاعدوا لنا حالاً كل ماطلبنا ورفضوا رفضاً باتاً استيفاء ثمن ماقدموه لنا وقالوا باعتزاز ان الضيافة لكل عابر سبيل ايا كان واجبة. واذ اردت ان اقدم شيئاً لقاء ذلك فعند خروجي اعطيت مقداراً من المال بيد الاولاد. ولم تكن هذه حادثة وحيدة بل صادفتنا اكثر من مرة.

★ ★ ★

[ص ٤٠٢] للآباء الاوغسطينيين[٣٠٤] دير في البصرة، وللآباء الكبوشيين رسالة في بغداد واخرى في الموصل.[٣٠٥]

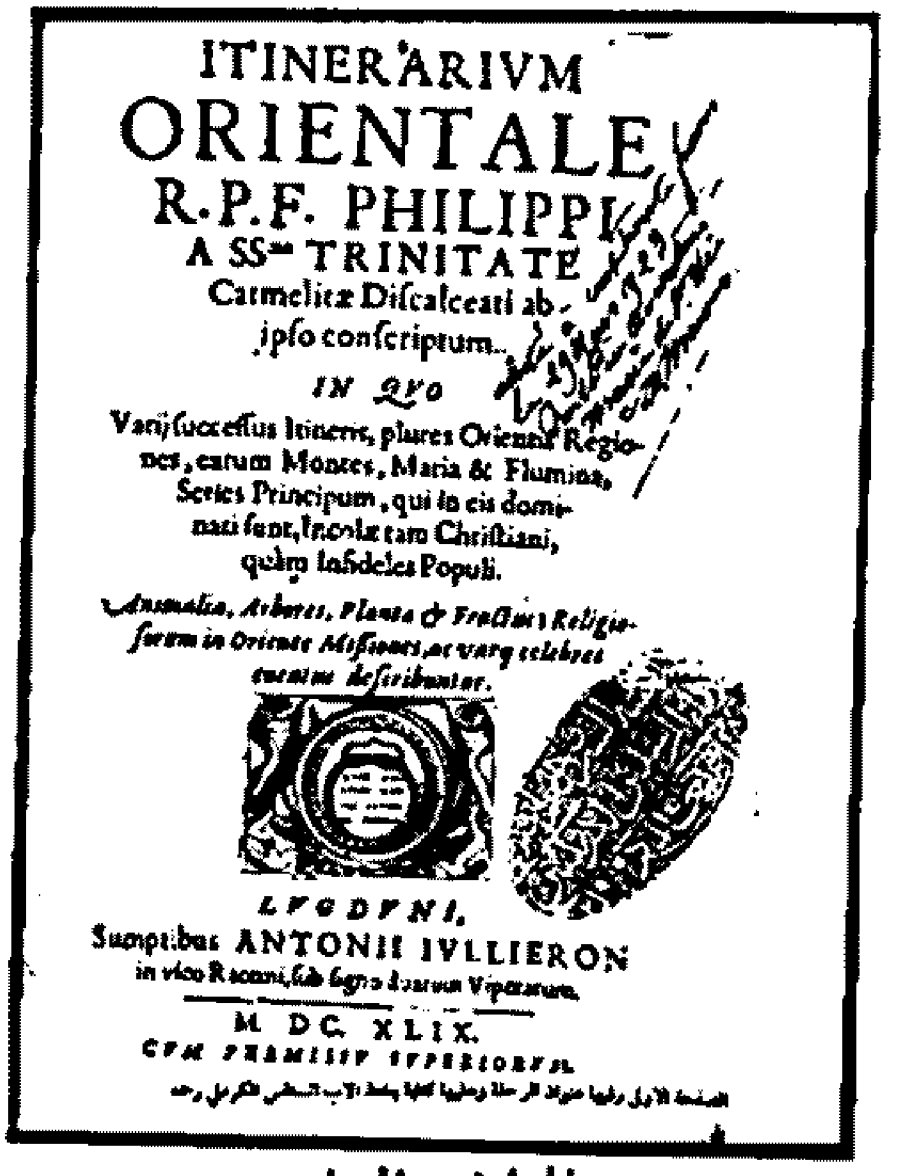
ITINERARIVM
ORIENTALE
R.P.F. PHILIPPI
A SSᵐᵃ TRINITATE
Carmelitæ Discalceati ab
ipso conscriptum.
IN QVO
Varij successus Itineris, plures Orientis Regiones, earum Montes, Maria & Flumina, Series Principum, qui in eis dominati sunt, Incolæ tam Christiani, quàm Infideles Populi.
Animalia, Arbores, Plantæ & Fructus Religiosorum in Orientis Missionis, ac varij celebres eorum res describuntur.
LVGDVNI,
Sumptibus ANTONII IVLLIERON
in vico Romani, sub signo Ursinæ Virginum.
M. DC. XLIX.
CVM PRÆMISSIS SUPERIORVM.

الهوامش والمصادر

١ ـ مع الشكر الجزيل للاب ميشيل الكرملي (بغداد) الذي زودنا بهذه المعلومات عن صاحب الرحلة.

٢ ـ هذه العناوين من وضعنا.

٣ ـ هذا مطلع الفصل الخامس من الرحلة وهو في ص ٢١ منها.

٤ ـ لفظة اطلقت على النقد الذي يحمل صورة ترس منذ عهد الرومان. واللفظة لاتينية Scutum.

٥ ـ نوه السائح اكثر من مرة بملك البادية وعاصمة البادية. وهو يشير الى اسرة ابي ريشة المسيطرة آنذاك على البادية. و «الملك» في تلك الفترة كان مطلق او مدلج ابو الريشة.

٦ ـ انه يشير الى موقع حقرقوف.

٧ ـ سكينة بغداد يتلاعب بها الاغراب. انها «نصف خراب» بسبب الاحتلال الفارسي لها.

٨ ـ رهبان من اتباع طريقة فرنسيس الاسيزي. قدموا الى بغداد سنة ١٦٢٦، وغادروها سنة ١٧٠٢.

٩ ـ وهي النقود الملكية الاسبانية. فكلمة «ريال» تنسب الى «الملك».

١٠ ـ عباس الصفوي (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩).

١١ ـ كلشز خلف ص ٢٢٤ ومايليها.

١٢ ـ د. عبلاء نورس: العراق في العهد العثماني (بغداد ـ ١٩٧٩) ص ٤٤ ومابعدها.

١٣ ـ من رهبان الكنيسة الكاثوليكية في الغرب. وينسب اسم رهبنتهم الى جبل الكرمل في فلسطين. قدموا الى العراق سنة ١٦٢٣.

١٤ ـ وهو علي بن افراسياب. انظر: الكعبي: زاد المسافر ولمحة المقيم والحاضر (بغداد ـ ١٩٥٨) ص ١٨ ـ ١٩.

١٥ ـ كان علي باشا على علاقة طيبة بالاوربيين عامة ويكن احتراماً للاباء الكرمليين. وقد ذكر الرحالة ديلافاليه الذي زار العراق في نفس الفترة شيئاً كثيراً عن هذا الباشا وعلاقته بالآباء المذكورين. وقد ترجمنا هذه الرحلة الهامة الى العربية ولم تنشر الى اليوم.

١٦ ـ هو عناق الارض. وبالتركية قره‌قولق. انظر: معجم الحيوان لأمين المعلوف ص ٤٩ ـ ٥٠. وقد ذكر وجوده بالعراق رحالة آخر هو بتفنو وقد ترجمنا مقتطفات في هذه الرحلة الى العربية (مجلة بين النهرين ٢: ٣٨٧ ـ ٤٠٥).

١٧ ـ يشير الى بكر صوباشي، واسم ابنه محمد وكان المسؤول عن الدفاع عن القلعة فتواطأ مع الفرس طالباً الامان لنفسه لقاء تسليمه القلعة فسقطت بغداد.

١٨ ـ استعاد السلطان مراد الرابع مدينة بغداد في ٢٥ كانون الاول ١٦٣٨.

١٩ ـ انظر التفاصيل في: لونكريك: اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (بغداد ـ ١٩٦٨) ص ٦٦ ـ ٦٨.

٢٠ ـ سفر التكوين ١١ : ٣.

٢١ ـ انه على وهم اذ لم يكن في العراق رهبنة تتبع قوانين القديس باسيليوس.

٢٢ ـ هو دير الربان هرمزد قرب القوش (الموصل)

٢٣ ـ الاب باسيل (١٥٩٦ ـ ١٦٥٤) قدم الى البصرة سنة ١٦٢٣ وفتح فيها مبعثاً لرهبته وشيد كنيسة بمساعدة الوالي.

٢٤ ـ عزيز جاسم الحجية: بغداديات (بغداد ـ ١٩٦٧) ص ١١١.

٢٥ ـ اعضاء رهبنة كاثوليكية ينسب اسمهم الى القديس اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠).

٢٦ ـ نوهنا بهم في الهامش ٨.